صدره ضمات شوق وحنان ، وإلا فى أن يغمركم بالعطف والشفقة ، وإلا فى أن يبذل لكم من ماله ومن سلطانه ، وإلا أن يعقد العزم على شأن يخصكم به ليكون كفارة ما كان . وانطوت السنون وهو لا ينسى ... والزوجة ، وهى فتاة حمقاء أعجزها أن تستميل قلب أبيك بعد أن انكشف خبثها وبدت شيطانيتها ، فانكسرت شوكتها وعاشت بينكم غريبة تعانى مرارة الذلة وقسوة الخضوع ، لا تحس الراحة ولا الهدوء ولا اللذة ... أما أنتم فقد ربطتكم الشدة بروابط الصداقة وجمعتكم القسوة بأواصر المحبة ، وأنتم ما تزالون فى أول الطريق ...

لقد عقد أبوك العزم على شأن يخصكم به ليكون كفارة الزلة التى ارتكب على حين غفلة منه ، فماذا كان منه ، يا صاحبى؟ وماذا كان ؟

كامل محمود حبيب

فلسفة الإصلاح

للأستاذ محمد محمود زيتون

ليس من العجيب أن تكون الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى قديمة قدم الإنسان ، فقد كان العالم من قبل غير منسجم مع النزعات البشرية ، لأن شيئا جديدا طرأ على العالم وهو (العقل) الذى لم يكن شيئا مذكورا .

أخذ الإنسان بهذا السلاح ، وحاول استخدامه ، وهو فى موقف المقاومة ، إزاء جميع القوى المحتشدة عليه ، والتى ليس له طاقة بها . حينذاك شعر بأنه أقل من خصمه الحيوان : فالحيوان مسلح بظفره ونابه وقرنه ، أما هو فليس له من ذلك شىء ، وإذن فهو مضطر إلى تقليده ليدفع عن نفسه كل العوادى بحجر يرمى به أو غصن يتخذه رفيقا له أو ما شابه ذلك مما يقع تحت سمعه وبصره .

وهكذا كان الإنسان فى بدء حياته « حيوانا صناعيا » لأنه ألغى سلاح العقل واعتمد سلاح الوحشية ، ولا سبيل إلى إنقاذ الإنسان من هذه الوهدة التى تردى فيها والتى كادت تحشره فى زمرة الوحوش إلا بالرسالات السماوية تعلو به إلى ما يجب أن يكون عليه من تسام بالروح ، وعلو بالعقل ، وترفع عن الحيوانية التى أساس المعاملة فيها الظفر والناب والقرن .

والحكمة من هذه الرسالات السماوية النهوض بالسلاح الإنسانى إلى النواحى الإيجابية فى الحياة ، وتهذيب كل اللفات اليدوية فالروحية والماشية ، على أحسن وجه وأقوم سبيل :

ولم تكن الرسالات فى الحقيقة بدعا من الأمر ، وإنما هى من صميم الحاجة الإنسانية وليست منها ببعيد ، فإذا ضلت الإنسانية سبيلها فما عليها إلا أن تعود إلى تعاليم الرسالات ، فإذا اهتدت فليس معنى ذلك أنها جاءت بجديد ، وإنما هى عادت إلى حيث يجب أن تعود .

وتاريخ الفكر البشرى شاهد عدل على ذلك : ففلاسفة اليونان والقدامى منهم بصفة خاصة — ظلوا ردحا من الزمن حيارى إزاء ما هم فيه من فوضى فى كل مرافق الحياة السياسية والاجتماعية والفردية والروحية . وهم عندما أرادوا لهذه الأحوال إصلاحا بدءوا بإصلاح العقل لأنه السلاح الذى إذا شحذ جيدا كان أقطع وأمنع مما سواه ، بل هو وحده الموصل الجيد للغرض المنشود ، وأقرب المسالك إليه .

شاعت السفسطائية قبل سقراط ؛ فسادت الفوضى ، فى الفكر والخلق والدين والسياسة ، وإذا بسقراط يرمى بأول سهم فى هذا الميدان ويعلق تلك الحكمة الخالدة (اعرف نفسك) التى كان قد قرأها على باب معبد « دلف » وعندما سئل عن مبلغ علمه قال « كل ما أعرف هو أنى لا أعرف »

وهذا من من غير شك بدء طبيعى ؛ لأن المألوف لا يعرف وإنما سقراط (نبى غير رسمى) أراد أن يبشر برسالة الفكر فحطم كبرياء السفسطائيين وغرورهم وتعاليمهم ، فهو يعلن أنه لا يعلم شيئا لأنه عالم أما هم فيدعون علم كل شىء لأنهم جهال .

وبلاد اليونان جبال بينها شعاب تقوم فيها مدن منفصل بعضها عن بعض ومنذ ابتليت بالغزو الفارسى ذاعت فيها الفوضى من كل لون . فلما تعمق أثر هذا الجرح السياسى فى خواطر المفكرين الأحرار ، وضح سبيل الخلاص ، وإذا بسقراط

« المعلم » الأول يتحدث ويعلم ويمشي في الأسواق ويرتاد النوادي لينشر دعوته مؤمنا بسلاحه القوى وهو العقل فيتفلسف . وأول ما يتفلسف يقيم هيكلا فكريا للعقل يسميه الفلاسفة « نظرية المعرفة » ويسير على نهجه من بعده أفلاطون وأرسطو ، ويكمل اللاحق منهم ما لم يتح للسابق .

ومن أجل هذا نرى دائما « نظرية السياسة » آخر حلقة من حلقات الفلسفة اليونانية ، وقد سبقتها سلسلة طويلة عريضة من تمهيدات فكرية في الطبيعة والنفس والأخلاق » .

والسياسة عند اليونان هي غاية الاصلاح ، أما العقل فهو نقطة البدىء والغاية هي التي تحفز على الحركة ، وتبعث على العمل .

وكان أفلاطون أكثر تحمسا للاصلاح ، وأغزر إنتاجا في مجاله ، فقد رسم في « الجمهورية » رسما تخطيطيا بارعا للمجتمع اليوناني ، وذلك بعد عرض لنظرية « المثل » التي محور ارتكازها العقل ، والتي توحي بأسبقية الميزان على الموزون ، وضرورة « القيمة » في « الحكم »

وليس أدل على نمو هذا الاتجاه ، وصدق النية فيه ، من إصلاح الفكر الذي نادى به أرسطو إذ وضع « آلة » لعصمة الفكر من الوقوع في الخطأ ، وحرص على أن يكون « المنطق » وهو علم هذه الآلة مدخلا لكل علم ، وأساسا لكل تفكير .

وما إن انحدرت البشرية إلى هاويتها السحيقة حتى انتشلتها الرسالات تباعا ، ونهضت بها إلى درجات السمو ، فلما غفلت عنها أوربا المتخبطة في دياجير الظلم والظلام ، عنت نفس الحاجة التي صادفت سقراط إذ خلقت منه ظروف بلاده مصلحا اجتماعيا .

وكذلك العالم الاسلامي في العصر الوسيط ، إذ أراد الفارابي أن يقيم دعائم « المدينة الفاضلة » فاتجه إلى حقيقة النبي ، والسر في صلاحيته للرسالة ، ودرس لذلك تفاوت البشر في درجة الخيال وملكة الالهام ، فاذا أراد أفلاطون أن يكون الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسفة ، فقد أراد الفارابي أن يكون الفلاسفة المصلحون ورثة الأنبياء .

وأحاطت بفرنسا في القرن السادس عشر ظروف سياسية عنيفة كان العقل فيها وقفا على أهل الكنيسة والعلم احتكارا لهيئة كبار العلماء . فقام « ديكارت » ليدلي بدلوه في الاصلاح بمحاورة فلسفية يتخطى بها كل الحواجز والموانع التي تحول دون غرضه فأحصى في كتاب خاص « قواعد لهداية العقل » لأن شيطانا ماكرا genie malin — على حد تعبيره — يعبث بأفكاره ويضلله ولم يلبث أن وضع كتابه الآخر عن « المنهج للبحث عن الحقيقة في العلوم » وقال فيه أول ما قال « العقل أعدل الأشياء توزعا بين الناس » فكانت هذه الجملة بمثابة القنبلة التي ألقاها « ديكارت » على الأرستقراطية المزعومة فحطم أوكار الاحتكار العلمي ، وأخرج العلم من زوايا الأديار والصوامع ، إلى ضوء النهار الساطع ، ونجحت الثورة الديكارتية

وجاء « فرنسيس بيكون » فحطم « أصنام العقل » التي لخصها فيما يلي :-

١ — أصنام القبيلة : كناية عما يرثه الإنسان من جنسه البشري كتصديق المرائين والمنجمين الذين إذا صدق أحدهم مرة ظن الإنسان أن المنجمين صادقون ، وكذب المنجمون ولو صدقوا .

٢ — أصنام المسرح : كناية عن تأثر الشخص بالمشهورين قبله مثله كمثل المتفرج الذي يقلد الممثل إذا أجاد دوره .

٣ — أصنام السوق : كناية عن العملة التي نتعامل بها في المجتمع وهي اللغة التي تستعبدنا ألفاظها ومعانيها .

٤ — أصنام الكهف : كناية عما لكل فرد من مستودع سحيق ، في قرارة نفسه تنحدر إليه مؤثرات من الخارج سواء من الوراثة أو البيئة أو ما سواهما .

ولكي نقيم أساس الإصلاح لابد من تحطيم هذه الأصنام التي تستعبد العقل وتستبد به ، وتحول بينه وبين التبصر والتدبر مما لا يصلح معه نظام . وبناء المجتمع لا ينهض قويا متينا إلا إذا أتينا عليها من القواعد .

هذا عرض سريع لفلسفة الاصلاح منذ أقدم العصور وهو تاريخ جدير بالنظر والاعتبار .

فاذا نحن أردنا لهذا المجتمع الحالي إصلاحا ، وقفنا منه على أشياء منها : أن المجتمع الآن نهب لاشتات النوازع الوحشية ، والشهوات البهيمية ، حتى نأى الفرد والمجموع معا عن ينبوع

الرسالة السماوية : فلم يعد للضمير وخز ، ولم يعد القلب ينبض بالخير والمعروف ، وجمد العقل وعكف على أصنامه ، ورانت غشاوة المادة على النفس الانسانية ، وتجمدت الأكباد ، ارتكاناً على مخترعات «الحيوان الصناعي» الذي أعاد التاريخ ذكراه ، وأصبح كل همه الآن: الهجوم أو المقاومة، ولا شيء غير ذلك. فالسياسة الآن كلها مكر الذئاب ، وروغان الثعالب ، ونباح الكلاب ، وجبن النعاج ، وتسلل الفيران .

والدين كذلك هو التراخي والتواكل والذل والهوان والاستكانة والعبودية ، والعملة المتداولة كلها زيف وزور وبهتان ولا رأس مال لها من دين أو قانون، ولا رصيد لها يحميها ويغطي الخسارة ، أما المكسب فهو النهب والسلب والغصب والغبن والفحش .

والتربية هي الأخرى تخلصت من «العروة الوثقى» وتحللت من جميع القيود، فلا كبير ولا صغير ، ولا وازع ولا رادع ، ولا حرية للانطلاق ، ولا حدود للحجر .

وهكذا في جميع مرافق المجتمع ، والفوضى ضاربة أطنابها والغيورون في حيرة عجيبة ؛ أيبدأون بإصلاح السياسة أم الاقتصاد أم التربية ، أم يبدأون بإصلاح الفرد أم المجتمع ؟ وهل يصلحون الدنيا ليصلح الدين ، أم هل يصلحون الدين لتصلح الدنيا ؟ وظل هذا التخبط وسيظل حتى يعود الأمر إلى نصابه .

والحق أنه ما دامت الأصنام قائمة في المعبد والمنزل والمدرسة والسوق فلن يصلح الفرد ولا المجتمع . وسبيل الخلاص معروف ، ولا مناص من السير فيه لأنه طبيعي ، وسهل ميسور : وهو أن نهدف إلى غاية واضحة نبيلة، وتتجه جميع الأنظار إليها وتستوعبها وتؤمن بها . والمنطق السليم يقول بأن هذه الغاية هي «الله سبحانه وتعالى ، وهو الأول والآخر ، وهو الذي خلق العقل أول ما خلق» .

والآن وبعد أن انحدرت الانسانية إلى هذه الهاوية المادية وبعد إعفاء صوت العقل لا سبيل إلى انتظام الحال إلا بإصلاح العقل وتخليصه من أوهامه وإنقاذه من أصنامه ، وهذا هو المبدأ الصحيح

وصدق الشاعر :

إذا أفسدت أول كل أمر أبت أعجازه إلا التواء

وهذا هو أقرب السبل إلى الغاية المنشودة فالعقل لا يدرك الأمور أحسن الادراك ، ولا يقدرها التقدير الصحيح ، ولا يدفع الفهم إلى العمل النافع المأمون، إلا إذا كان هو نفسه سليما ، وكاملا متكاملا ، أي حرا طليقا في تأثره وتأثيره . كما أن العقل هو الذي يهدينا إلى الهدف ، ويتحدد له المناهج ، ويتوخى الظروف .

فلنعمد إلى العقل نستصلحه أولا لنطمئن تماما على إصلاحه حتى إذا تم ذلك لم يعد أمام المصلحين إلا مجرى ممهد تماما لتيار الإصلاح السليم « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

محمد محمود زيتون

المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم
في القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الكبير **ادوارد وليم لين**

نقله إلى العربية الأستاذ **عدلي طاهر نور**

كتاب يقع في ٤٥٠ صفحة من القطع الكبير وهو سجل حافل لعادات المصريين وآدابهم وأحوالهم واعتقاداتهم وأساطيرهم في القرن التاسع عشر. يمتاز بوضوح المنهج ودقة التفصيل وتوخي الحقيقة وجمال العرض وتصوير الأشياء والأشخاص بالقلم والريشة تصويراً يحفظ لها خصائصها وملامحها في الذهن والعين على تراخي الزمن . والكتاب مترجم عن الانجليزية ترجمة أمينة دقيقة تكاد مع بلاغتها وسهولتها تكون حرفية

يطلب الكتاب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات الشهيرة والثمن خمسون قرشاً عدا أجرة البريد .